

# المعرفة العلمية عند البدائيين في نظرية ليفي ستراوس

عباس البيشم

بدراسة البدائيين ، وعند الذين يستعملون المنهج البنيوي في دراسة مختلف المظاهر الذهنية والاجتماعية في المجتمعات المتحضرة. وستعتمد هذه الدراسة على تصور العلم عند البدائيين كما يعرفه ليفي - ستراوس في الفصل الاول من كتابه الفكر البدائي (La Pensée sauvage).

٢ - ١ : يقول ليفي - ستراوس ان المتحضرين لا يقرون الشكل العلمي للمعرفة الا لتلك التي تستعمل التصور (concept) والتي تتم وفقا لمعايير منهجية متعارف عليها في كل فرع من فروع المعرفة العلمية ، والتي تؤدي الى تفسيرات نظرية وتطبيقات عملية .

ولكن ليفي - ستراوس لا يرى في شكل المعرفة العلمية هذا ، الشكل الوحيد الممكن. وقد اعتمد المؤلف على جملة من الملاحظات - المشاهد التي قام بها علماء الاثنولوجيا ، ليستنتج منها وجود ذهنية علمية حقيقية عند البدائيين . ولكن ، اذا كان تفكير هؤلاء لا يتوصل الى نفس النتائج العلمية التي يتوصل

١ - ١ : تحتل فرضية وجود معرفة علمية عند البدائيين . متساوية في جوهرها مع المعرفة العلمية عند المتحضرين ، حيزا كبير الاهمية في التفسير البنيوي للفكر الاسطوري عند ليفي - ستراوس . كما ان المعنى الخاص الذي يعطيه هذا الاخير للمعرفة العلمية ، كلفه تمثل مختلف الظواهر الذهنية عند البدائيين. يشكل اساس المنهج الذي يستخدمه المؤلف في دراسة الميثولوجيا في كتبه الاربعة الميثولوجيات (Les mythologiques) وهذا المعنى من شأنه ايضا ان يلقي اضواء على المفهوم البنيوي للمعرفة العلمية وكيفية تناولها للوقائع الانسانية وصياغة شكلها العلمي . ومن هنا رأينا ان اخضاع تصور العلم البدائي ( او علم المحسوسات كما يسميها رائد البنيوية الفرنسي ) الى النقد الجدي يمكن ان يشكل مدخلا من جملة المداخل للحكم على المنهج البنيوي في تناوله للوقائع الانساني . وعلى تنظيره للمعرفة العلمية . ليس فقط عند البدائيين بل وعند المتحضرين الذين يقومون

اليها المتحضرون ولا الى نفس الاشكال النظرية لمعارفنا . فالامر يعود الى ان تفكير البدائيين لا يستخدم التصور كاداة . بل العلامات الطبيعية (Les signes naturels) والطابع الحسي والمعاش للاشياء . وبالتالي . فاننا عندما نحكم على تصورات البدائيين الميثولوجية بالعبيثة نحكم عليها انطلاقا من تفكيرنا . أي من خلال نموذج معين من المترفة العلمية (نموذج العلم المتحضر) . الذي نعتبره خط الشكل الصحيح والوحيد لهذه المعرفة .

وإذا قصدنا ، كما يدعونا فيلسوف البيوية ، الى فهم اختلاف وسائل المعرفين اللتين نحن بصددهما . فمن الممكن . حسب رايه . ان نرى ان التفكير البدائي لا يقل تنظيما عن تفكيرنا العلمي . يبقى ان نقيم ما اذا كان التنظيم . أي تنظيم . يشكل بالفعل جوهر العملية العلمية ، وهذا ما سنتعرض له في سياق هذا البحث .

١ - ٤ : والواقع انه عندما قام ليفي - ستراوس بتقييم الظواهر الذهنية التي سجلها علماء الانثولوجيا والتي استخلص منها وجود ذهنية علمية لديهم . فإنه انطلق من فكره . او افكار معينة تتعلق بمميزات التفكير العلمي لدى المتحضرين . وستكون هذه الافكار موضوع دراسة نقدية مقارنة للبحث فيما اذا كانت المعطيات الانثولوجية تكفي للتدليل على وجود نشاط ذهني يتسم بالعلمية لدى البدائيين في النقطة الاولى من الدراسة . وستفودنا النتائج الى البحث عن الخلفيات . ومناقشة المسلمات التي تسم البيوية كتناول علمي في حقل المعرفة الانثولوجية . هذا الحقل المثالي في نظر البيوية التي تبحث من خلاله عن صحة وخصوبة منهجيتها .

١ - ٢ : ينقل اليسا مؤلف « التفكير البدائي (١) » مشاهدات متعددة لعلماء

١ - ٣ : ولكن ثمة نقطة اساسية تسترعي انتباهنا بادية ذي بدء . ذلك ان صاحب كتاب « التفكير البدائي » يفترض بالضرورة وجود تصور عام للعلم . يشكل علم المتحضرين وعلم البدائيين نموذجين ، او بالاحرى مظهرين للتصور الاساسي للعلم . فمن خلال هذا التصور يقوم حكما التاكيد على الطابع العلمي للتفكير البدائي وتماهي جوهره مع التفكير العلمي لوعي المتحضرين في نظرية ليفي - ستراوس . وبكلام اكثر دقة نقول : انه من المفترض ان يكون هذان النموذجان متمائلين من جانب لكى يكونا مختلفين من جانب آخر . أي ان يكون الاختلاف مبنيا على قاعدة من

(١) ترجمنا عنوان كتاب ليفي - ستراوس « La pensée Sauvage » بالتفكير البدائي . ويمكن اعطاء كلمة « Sauvage » معنى الفطرية او الطبيعية ، لان كلمة التفكير الوحشي او المتوحش قد لا تناسب في المفهوم الحالي المعطى لهذه الكلمة في العربية مع ما يفصده اللفظ من استعمال كلمة « Sauvage » .

(١) ترجمنا عنوان كتاب ليفي - ستراوس « La pensée Sauvage » بالتفكير البدائي . ويمكن اعطاء كلمة « Sauvage » معنى الفطرية او الطبيعية ، لان كلمة التفكير الوحشي او المتوحش قد لا تناسب في المفهوم الحالي المعطى لهذه الكلمة في العربية مع ما يفصده اللفظ من استعمال كلمة « Sauvage » .

الانولوجيا تشهد بوجود مزايا ذهنية نذكرنا  
ببعض مزايا الروح العلمية المثبتة في كتب  
الفلسفة المدرسية :

الملاحظة الدقيقة للواقع ، فضول عبر  
مرتبط مباشرة بالحاجات الملحة الحياتية ،  
الاهتمام بالتبويب والتصنيف للعالم الخارجي :  
عالم الحيوان والنبات والتغيرات الطبيعية ،  
واخيرا الاعتقاد بان أي ظاهرة خارجية ، مهما  
كانت تافهة ، تربط بنظام تفسيري عام يشكل  
عقلنة للواقع بالنسبة للبدايي . وقد رأى  
المؤلف في هذه الظاهرة الذهنية ما يعادل مبدأ  
السببية العلمي في العلم المتحضر .

٤ - ٣ : ولكن ، ولكي تبقى في اطار ما  
يسمى بالروحية العلمية الكلاسيكية ، تجدر  
الملاحظة ان هنالك خصائص اساسية للذهنية  
العلمية لم يأت على ذكرها ليفي - ستراوس ،  
ولم يجد في مشاهدات الانولوجيين ما يدعمها  
عند البدايين : الشك في قيمة المعرفة ،  
البحث عن التثبت من مطابقة المعرفة للواقع ،  
الفرضية التي تقود الملاحظة والاختبار ،  
البحث عن التماسك المنطقي في بناء المعرفة  
الموضوعية ، الخ ....

ولا نود القول ان كل هذه السمات المميزة  
التي لم يأت على ذكرها المؤلف ، تتعلق بالاداة  
المعرفية الخاصة بالمتحضرين ( التصور ) لانه  
بذلك يعالج مشكلة بانارة مشكلة اخرى غير  
قابلة للمناقشة في رأينا .

لقد تعلمنا « كمتحضرين » ان تقابل المعرفة  
العلمية بالمعرفة الخاطئة او بالمعرفة المنيية على  
الآراء والمعتقدات ، وان نميز بين المقال العلمي  
وبين سائر المقالات ( الادبية ، الفلسفية ،  
الاعلامية وغيرها .. ) . فهل لدينا من الاسباب  
ما يجعلنا نهمل اهم الخصائص التي تميز مقال

المعرفة العلمية ، يفرض اعطاء الصبغة العلمية  
على معارف البدايين ؟ وهل علينا ان ننظر الى  
ما يطرحه ليفي ستراوس كسمات العلمية  
( التعطش الى المعرفة ، الاهتمام بمعرفة  
التفاصيل ، البحث عن التنظيم وربط الاحداث  
في نظام معرفي عام ) بمثابة اسس تحدد علمية  
البدايين وعلمية المتحضرين ؟

٥ - ١ : الحقيقة ان هذه السمات التي يود  
ليفى - ستراوس ان يتعرف من خلالها الى  
جوهر العملية العلمية ، تشكل في الواقع  
سمات جميع المظاهر الذهنية عند المتحضرين ،  
بمعنى اننا لسو اعتمداها في تحديد سمات  
العقلية العلمية لفقدت هذه الاخيرة خصائصها  
كشباط ذهني متميز .

٥ - ٢ : فالانتباه الى التفاصيل والنزعة  
الى التعميم ليستا سمتين خاصتين بالتفكير  
العلمي بشكل خاص . فالانتباه الى  
التفاصيل يفقد معناه العلمي خارج نطاق  
الاسئلة التي يطرحها العالم على الواقع ، حيث  
تصبح للتفصيل وظيفة معرفية مخصصة ، اذ  
ينتقل الى وضع آخر ، وضع احدثت العلمى  
بواسطة المفاهيم - التصورات العلمية المعنية .  
وبالتالي فان ما تجدر الاشارة اليه وما يتوجب  
تقويمه هنا لا يتعلق بالانتباه كجهد نفسي او  
كنية معرفة ، بل بالانتباه الموظف في مشروع  
علمي والذي يتبع مسارا معيناً ومحدداً من  
ضمن بناء تاريخي معين للمعرفة العلمية .

٥ - ٣ : وكذلك بالنسبة للنزعة الى  
التعميم . وهنا يمكننا التأكيد على ان هذه  
النزعة تميز الذهنية الطفولية ، وغير المؤهلة  
عند البالغين . لا بل ان التأهيل العلمى للذهن  
يكنم بشكل خاص بالحد من النزعة الذهنية  
الى التعميم « الغريزي » ، والى اخضاعها الى

قليلة الوضوح بحيث لا يسعنا ان نستنتج منها معلومات دقيقة . فهذه التصنيفات مبنية على بعض المعايير الحسية المبنية على معطيات الادراك : وسيلة الانتقال ( بالنسبة للحيوان ) برا او بحرا او في الهواء ، زمن الانتقال : ليلا او نهارا . القيمة الغذائية والطبية للنبات . وهي جميعها معايير تهدف الى التعرف المباشر والى التطلع الى قيمة الاشياء . ولكننا نلاحظ ايضا وجود معايير رمزية : جنس النباتات وتوافقها مع الاعداد المفردة او المزدوجة ، وموقعها من الاتجاهات الاربعة الخ . . . . ولكن ، اذ يؤكد ليفي ستر اوس على تحليل القيم الرمزية للحيوانات والنباتات وكيفية ترابطها مع مختلف تصورات البدائيين الذهنية . فاننا لا نقع على تحليل لنموذج من التصنيف من اجل التدليل على ترابط المعايير داخل التصنيف ، وذلك طبعا لغياب مثل هذا التصنيف عند البدائيين . ولعل وجود واقع التصنيف عند البدائيين قد استحوذ على اهتمام الكاتب اكثر من قيمة التصنيف العلمية .

وبالنسبة لعمليات التصنيف يمكننا اعادة ما قلناه بالنسبة لباقي سمات « الروح العلمية » ، اي انها ، كواقع تصنيف لا تعبر الا عن « غريزة » معرفة غايتها ضبط الواقع من اجل التعرف عليه واستخدامه ، ولا يمكننا الحكم عليها كتصنيف علمي الا من خلال ترابطها حول معايير قليلة من شأنها ان تفيدها وتفسر لنا خصائص الكائنات المصنفة .

٦ - ١ : وبعد ، فاننا نعتذر من القراء ليرادنا معلومات اصبحت من القواسم المشتركة لدى الجمهور المثقف العريض . ولم نذكر بها الا لتجاهلها من قبل ليفي ستر اوس الذي راهن على ان كل ما لا نجده عند البدائي من نتائج علمية ،

المقاييس المنطقية والمنهجية . وبالتالي فعندما تقرا عند ليفي ستر اوس جملة كهذه في « التفكير البدائي » ( صفحة ٢١ ) : « وهكذا نفهم ان الفكر الاسطوري يمكنه ان يكون معمما ، اذن علميا » فاننا نلمس الخطأ في اعطاء التعميم هذه الاهمية التي تجعله سمة مميزة للعمل العلمي ، بينما هو في الواقع السمة المشتركة لمختلف المظاهر الذهنية والنفسية عند الانسان .

٥ - ٤ : اما بالنسبة للتطلب الذهني للتنظيم والاعتقاد الشكلي في السببية فيمكن القول كذلك انهما لا يشكلان سمات خاصة في المقال العلمي عند المتحضرين . ذلك انه يمكننا ان نجدهما في المقال الديني والمقال الميتافيزيقي ، في كلام الاطفال كما هو الحال في كلام فئة كبيرة من المصابين بالعصاب النفسي (Les névrosés) ، وحتى في الحديث العادي لجميع الناس بالنسبة لاي موضوع . والاميون بشكل خاص هم الذين يمارسون التنظيم المبسط والسريع للاحداث من خلال تفسيراتهم لما يحيط بهم من خلال بعض المعطيات والمسلمات التي لا يعيرونها اي اهتمام ناقد . والحقيقة ان المسافة التي تفصل التطلب النفسي للتنظيم وبناء تنظيم متماسك ومتلائم مع الواقع هي المسافة التي تشكل تاريخ المعرفة العلمية والتي لا يعيها ليفي ستر اوس اي اهتمام .

٥ - ٥ : ولعله من المفيد ان نلقي نظرة سريعة على التصنيفات التي يقوم بها البدائيون لعالم الحيوان والنبات . والتي يذكرنا بها ليفي ستر اوس من خلال شهادات الانثولوجيين . للتدليل على العقلية العلمية لدى البدائيين . ولكن الواقع ان الكاتب يحدثنا عنها بطريقة

الاساسية والبنى الخاصة والممكنة في النظام اللغوي لاية لغة كانت .  
٦ - ٣ : ولكن هذا الموقف يؤدي الى تجاهل تمايز المعرفة العلمية ( لان كل مظهر ذهني يصبح علما ) ، وكذلك الى تجاهل الشروط التاريخية التي ادت الى بناء المؤسسات العلمية والمراحل التي مرت بها .

ولا يمكننا بالطبع هنا التحدث عن العوامل الاجتماعية والتاريخية التي ادت الى قيام المعرفة العلمية وتطويرها والتي يتجاهلها ليفي سترأوس ليجعل من المعرفة العلمية المتحضرة وليدة استخدام اداة التصور ، الا اذا جعلنا من التاريخ العلمي والمؤسسي وليد اداة التصور . وهنا نقف عندئذ موقفا هيجليا مبسطا ومشوها .

٦ - ٤ - واذا كان من العبث ان ننظر الى علم المتحضرين كنظام تفرزه اداة التصور ، فمن العبث نظريا ان ننظر الى علم البدائيين . اي جميع تصوراتهم حسب ليفي سترأوس . ككل متماسك يخفي وراء المظاهر العشوائية للتصورات والحكايات الاسطورية ، كل يظهر تماسك العقل البشري في كل مظهره . وكان عقل الانسان منظم اساسا بحيث لا يفرز الا التنظيم . والحقيقة ان العقلية العلمية التي انتجت الانظمة العلمية هي نتيجة عمل علمي دؤوب ومتواصل ومتعثر احيانا كثيرة ، اصطدم في فرص النجاح بعوامل فشل كثيرة خلال التاريخ وقاومها واعاد بناء نفسه مراجعا مسلماته وفرضياته ونظرياته وادواته ومناهجه ، وتركيب موضوعاته . فلا شيء يسمح لنا بأن ننظر الى الذهن البشري كجوهر يفرز التنظيم والتماسك من خلال تصوراته ورؤياه لنفسه وللعالَم الخارجي . فالعقل

نظرية كانت ام علمية ( كما هو الحال في علم المتمدنين الذي نتحدث عنه ) ، يأتي من اختلاف الاداة المستعملة عند البدائي . فلولا تلك الاداة لوجدنا علما مماثلا لعلم المتحضرين (او بالاحرى المفهوم الخاص للعلم عند ليفي سترأوس والذي هو موضوع مناقشتنا من الناحية المعرفية) .

٦ - ٢ : وهكذا يمكننا الاستنتاج بأن ليفي سترأوس يظهر بمظهر الاستمولوجي السيء عندما يميز علم المتحضرين بصفات ذهنية مشتركة بين جميع المظاهر الذهنية لدى المتحضرين والبدائيين ، حاصرا الفروقات وما يستتبعها في استعمال التصور عند البعض والعلامات الطبيعية عند البعض الآخر . ولكن ، ودون الحاجة الى مناقشة هذا الاختلاف الادائي ، يمكننا ان نقوم باستنتاج مقتضياتها المنطقية . فبما انه كان من نصيب الفرع المتحضر من البشرية التي دخلت التاريخ ، ان تستعمل التصور بعد العصر النيوليتيكي كما يقول الكاتب ، فعلينا ان ننتظر من هؤلاء ان يفرزوا العلم افرازا ، تماما كما تجري اية عملية بيولوجية وطبيعية لا فرق بين اي من مظاهرها . ويصبح بذلك العلم صفة ملازمة للعقل البشري ، وهذا ما يقصده ليفي سترأوس لكي يبرهن ان جميع الاساطير يمكن ان تفسر من خلال ارجاعها الى نظام اسطوري مشابه للنظام اللغوي ، معتقدا انه بذلك يعطي الصفة العلمية الى الذهن البدائي ويفسر ، بنفس الوقت ، عدم عبثية المظاهر والتصورات الاسطورية على الرغم من التنوع الكبير في محتوى الاقاصيص الاسطورية : لانها تعود في النهاية الى اسطورة واحدة يحاول الكاتب بناءها او بالاحرى استخلاصها ، تماما كما يقوم اللغوي باستخلاص الوحدات الصوتية

فهم للاحداث . فالتنظيم خاضع في قيمته العلمية لمدى التفسير الذي يوفره للعالم . وحده النظام الرياضي يمكن اعتباره نظاما شكليا لا يطرح الا قواعد التمازج الشكلية علما بأن الاصول المعرفية للرياضيات ليست منقطعة عن القضايا التي تطرح في مجال علوم الطبيعة . فهي فيزياء مجردة كما يقال عنها .

هذا بصرف النظر عما هو معروف بأن عملية التشكيل العلمية (formalisation) للانظمة العلمية هي دائما موضوع اعادة نظر . لان حقل التجربة لا يقفل ابدا .

٧ - ٣ : فاذا كان الحال كذلك في العلوم الصحيحة التي تقبل الشكل الرياضي لان معطياتها قابلة للتقييم الكمي . فاننا نفهم ضرورة عدم الانزلاق في الاغراءات الشكلية - التنظيمية التي تفرنا بها اللسانية والتي دعانا ليفي سترانس خطأ لان نظر اليها كرائدة للعلوم الانسانية في كتابه «الانثروبولوجية البنوية» (L'Anthropologie structurale) . ويمكن ان نعطي ، في دراسة منفردة ، الدليل على ان اللسانية في حقيقة موضوعها ليست الا امتدادا لموضوع بيولوجي انساني ، معتمدين على نظرة ليفي سترانس نفسه في التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية كما عبر عنها في كتابه : « البنى الاولية للقرابة » (١)

فالبنى الاساسية للغة ( حسب تعبير Chomsky ) تشكل حقيقة انسانية عامة بصرف النظر عن بنية كل لغة خاصة ، فأي انسان يمكن ان يتعلم أي لغة كانت كلفة ام اذا ما توفرت الشروط الاجتماعية الخاصة له . وبالتالي فان ما يجعل تعلم اللغة امرا ممكنا وعفويا يكمن في تركيبه الذهني - البيولوجي .

البشري الذي استطاع مؤخرا ان يتدع آليات « مفكرة » لا تخطيء . لا يمكن اعتباره اساسا مماثلا للتنظيم الذي توصل اليه من خلال عراكه الطويل المشعب بالاطع والناقضات . ومعركة التماسك الذهني وثيقة الارتباط بمعركة تطابق الفكر مع الواقع في العملية العلمية .

٧ - ١ : وهناك برائنا خطأ لا يقل اهمية عن الخطأ السابق في تصور الرؤيا العلمية . الا وهو اعطاء صفة التنظيم والترتيب الاولية في التعبير عن الحقيقة العلمية وحقيقة النظام العلمي نفسه .

وهنا نلتقي بالنظرة المعرفية المستفاد من المنهجية اللسانية البنوية التي تجد في النظام الفونولوجي للغة الحقيقة الاساسية التي تفسر خصوصية تمازج الاصوات والتركيب التي تصدر عنها كل الوحدات البيطة والمركبة في من لغة خاصة ومعينة . وهنا يمكن الاقرار بأن ليس من مجال للحديث عن معنى لنماذج الاصوات ، فمعناها يكمن فقط في امكانية استنتاجها كتركيب ممكن داخل نظام للغة الصوتي والتمازجي . وبالتالي ، تختفي مقولة المعنى والتفسير لتحل مكانها مقولة النظام ونماذج التركيبات الممكنة فيه .

ولكن اذا كانت فرضية اولوية النظام وغياب المعنى والتفسير . تشكل اعتبارات اخصبت التناول الفونولوجي للغة فليس هناك ما يدعونا الى اعتناق المبادئ المعرفية في اللسانية في تناولنا للاحداث الانسانية وحتى للاحداث الطبيعية .

٧ - ٢ : فلا قيمة للنظم العلمية في العلوم الطبيعية الا بمقدار ما تستطيع ان توفره من

نعطي الصفة العلمية الا للمعرفة التي يستخرجها العالم بشكل يتطابق مع القوانين التي تسير العوامل والاحداث الموضوعية .  
يتبين لنا اذن انه على الرغم من اعطاء نفس الكلمة لعلم البدائيين ولعلم المتحضرين فاننا في الواقع امام مفهومين مختلفين لنفس التصور .

٩ - ١ : والحقيقة ان علم البدائي ليس الا مجموعة معارف البدائيين وطريقتهم في تصور العالم وتصور علاقتهم بالعالم . وبهذه الصفة يمكن مقارنة العلم البدائي بالمعرفة التي يحملها الينا استعمالنا غير المنقود للفتنا الطبيعية، لفة التخاطب التي هي في الوقت نفسه اداتنا الفجة في التعرف على الاشياء ، وفي تفسيرها وفق ما تحمله هذه اللغة من تصورات مسبقة ، ومعتقدات وافعال ايمان مختلفة ، وقيم اجتماعية كامنة في متن الكلمات ، وادوات تفسيرية تشكل مفاصل معرفية للعديد من التفسيرات التي نتبادلها في احاديثنا ، لا بل والتي تملأ دقات كتب عديدة .

ويمكننا بهذا المعنى ان نتحدث ايضا عن معارف الاطفال ، وهنا يصبح موضوع علم هذه المعرفة استكشاف تصورات العالم عند الاطفال واستكشاف طبيعة الحقل الحياتي الذي يكونه الطفل للتعامل مع العالم ( على سبيل المثال لا الحصر ) ، كما يمكننا بالمعنى نفسه ان نتحدث عن « معرفة » المصابين عقليا *les aliénés* للعالم .

هذه المعارف تشكل موضوعا للمعرفة العلمية وليست معرفة علمية ، لان هذه المعارف لا تنبثنا مباشرة عن حقيقتها . ويعود امر تكوين هذه المعرفة او اعادة صياغتها الذهنية الى الفكر العلمي « المتحضر » الذي

هذا عدا ان اي لغة ، بدائية كانت ام متحضرة ، تتساوى من ناحية كمالها الشكلي المباشر ، الامر الذي يجعلنا اشد ميلا للنظر الى الظاهرة اللغوية كظاهرة بيولوجية ولو انها تجري خارج نطاق الجسد وليس الشكل الخاص السذي تأخذه اللغة في مجتمع ما الا تمظهدا يعكس في بنيته الخاصة ، بنية بيو - سيكولوجية اعماق جذورا في التركيب البيولوجي للانسان .

٨ - ١ : لقد تركزت مطالبتنا لليفي ستراوس كاتنولوجي ( اي كعالم ) ان يستعمل تصورات (Concepts) محددة لا تدعو الى الالتباس . ذلك ان عمل العالم ، اكان موضوعه الاتنولوجيا ام الفيزياء ، يجب ان يعتمد على مفاهيم واضحة في المقال العلمي . ولا يمكننا ان نغير الفكرة التي نعتمدها عن العالم بانتقالنا من علم المتحضرين الى « علم » البدائيين ، فنقرر مثلا ان العلم يحمل الطابع المنظم لكل التصورات الذهنية ( عندما نتحدث عن البدائي ) بينما لا نعرف بالطابع العلمي الا لجزء من النشاط الذهني الخاص ( عندما نتحدث عن المتحضرين ) ، وان نقرر انه عمل ذهني يبحث عن استكشاف الحقائق الموضوعية ( عندما نتحدث عن علم المتحضرين ) ، ثم نقرر ان العلم هو مجموعة مظاهر معرفية لا مجال للحديث فيها عن الخطأ والصواب ( عندما يتحدث ليفي ستراوس عن علم البدائيين ) . ولا نستطيع التأكيد ان ما ينتجه ذهن البدائي

منظم تماما كمنظومة علمية دون اقامة الدليل بان جميع منتجات الذهن المتحضرة لها نفس الخصائص . كما لا نستطيع الاقرار بان المعرفة العلمية ليست سوى انعكاس الأشكال الابدية للذهن البشري الذي يقنن المظاهر الواقعية ( عندما نتحدث عن علم البدائيين ) ، بينما لا

يمكنه ان يعي اكثر التصورات والوقائع  
الانسانية بعدا عن فكرة المنطقي وذهنيته  
العلمية .

١ - ١ : يبقى علينا ان نتخلص من مغالطة  
تشوش تفكير ليفي سترأوس في محاولته  
اثبات وجود علم بدائي . فهو يضعنا امام هذا  
المأزق : اذا كنت تعترف بان الفكر البدائي  
ليس فكرا عيشيا (absurde) فعليك ان تعترف  
بان فكره عقلائي وعلمي ( اما الفوارق الجلية  
فيعود امر طمسها الى استخدام ادوات مختلفة  
كما اسلفنا القول ) .

وبعد ان يعدد الامثلة عن عدد الانواع  
الحيوانية والنباتية التي يتمكن البدائيون من  
تمييزها وتصنيفها ضمن اجناس وانواع  
وعائلات ( دون ان يدعونا الى التاكيد من طبيعة  
العايير المتخذة والتي نطلب اليها عادة ان تؤمن  
تماسك التصنيفات العلمية وعدم تناقضها  
وتعددتها في مختلف التعريفات المبنية على هذه  
التصنيفات ) يقول لنا ما ترجمته : « لم يكن  
الموحش ابدا وفي اي مكان ، هذا الكائن (الذي  
ينظر اليه ) وكأنه خارج لتوه من وضعه  
الحيواني حيث ( يظن ) بأنه تحت سيطرة  
حاجاته وغرائزه التي طالما سررنا في تخيلها .  
ولا هو ( البدائي ) هذا النوع من الوعي الذي  
تسيطر عليه الاندفاعات العاطفية . الفارق  
في القموض والتفكير التشاركي  
« participation » (١) . ( الفصل الثاني  
من كتاب « التفكير البدائي » ) . واهل هذا ما  
حدا بالمؤلف الى اختيار كلمة Sauvage بدل  
كلمة «Primitif» ، اي الموحش بدلا من كلمة

البدائي .

ومع اعترافنا التام بخطأ تلك الفكرة السائدة  
عن الانسان البدائي ، فاننا نسأل اذا كان  
تصحيح تلك الفكرة يستتبع بالضرورة الاعتراف  
بان « للمتوحش » عقلية « علمية » لا نطلقها الا  
على فكر العلماء ، اي على عدد قليل من  
المتحضرين انفسهم ؟

١ - ٢ : وتجدر الملاحظة ان حكما كالذي  
يصدر على البدائيين ، والذي حدثنا عنه ليفي  
سترأوس ، ينطلق من سيكولوجية خاطئة  
للانسان المتحضر نفسه ، سيكولوجية مشبعة  
بالايديولوجية الدينية والافكار المسبقة التي  
تنظر الى الانسان الاوروبي الابيض كنموذج  
للانسان السوي ، وكل ما عدا ذلك يشكل  
تشويها للصورة ، كما يؤكد عليه ليفي سترأوس  
في كتابه «le totémisme aujourd'hui» .  
والحقيقة اننا هنا امام سيكولوجية متحجرة  
لم تعد لها اية قيمة علمية . وهنا لا بد من  
القول اننا عندما نسيء فهم المتحضر فاننا  
نسيء فهم البدائي والعكس صحيح ايضا .  
ولكن ليفي سترأوس وقع في الخطأ نفسه  
عندما ذهب الى حد الافتراض بان مظاهر  
الذهن البدائي تعادل في جوهرها الذهنية  
العلمية عند المتحضرين . وبذلك فقد علم  
البدائيين كل خصوبته المرجوة في العلوم  
الانسانية التي كانت تنتظر من دراسة  
البدائيين اعطاء نظرة نسبية الى المتحضر  
نفسه ، نظرة تساعده على ان يفهم نفسه ويفهم  
البدائي انطلاقا من نفس النظرية التي يعود اليها  
عندئذ ان تفسر سبب الاختلاف وتحديد

(١) الكلمة تعود الى «Levy Bruhl» في تفسير العقلية البدائية كعقلية مختلفة عن عقلية المتحضرين وتميز بالتماهي  
مع كائنات طبيعية او غير طبيعية في معتقداتها وتصوراتها لواقعها وعلاقتها بالعالم . والمشاركة في ما يوصل البدائي  
بهذه القوى التي يعتقد بوجودها .



١١ - ٢ : فعندما رفض فرويد مثلاً ان يرى في الاحلام واقعا مشوشا في اساس تركيبه ، وحاول اكتشاف المنطق الخفي للتشويش الظاهري للحلم اكتشف بعض القواعد الاساسية التي تقوم وظيفتها الاساسية على تشويش الحلم في وعي التأم : وكلنا يعرف هذه القواعد : التمرح (Dramatisation) الاستبدال (Substitution) والتكاثف (Condensation) ، وجميعها قواعد مختلفة عن القواعد المنطقية التي تسير البحث العلمي ، ونجدها في القواعد البلاغية للنصوص الادبية وفي تفكيرنا وردات فعلنا في حياتنا اليومية ، كما نراها في السينما الحديثة ، كما يراها علماء النفس التحليليون في مختلف الاعراض المرضية في سلوك المرضى واحاديثهم .

اذن ، ف «منطق» العصابي (le névrosé) يختلف عن منطق عالم النفس التحليلي ، وكذلك الامر بالنسبة لعلم نفس الطفل ومنطق الطفولة وغيرها من الموضوعات النفسية - الاجتماعية . ولا يجوز كذلك الخلط بين عقلانية العلم وعقلانية الواقع (اي قابليته للمعرفة) . وقد المحنا في ما سبق الى ان هذا الخلط في تفكير ليفي سترافوس يأتي من اعتماده على نموذج النظام اللغوي الذي يشبه نظاما رياضيا في تكوينه وفي امكانية استنتاج التمازجات اللغوية الممكنة والمعتمدة في لغة ما .

١٢ - ١ : لقد ادركنا ان بعض سمات « الروح العلمية » (دقة الملاحظة ، والاهتمام بالتصنيف ووضع النظم ، والاعتقاد الذهني بوجود علاقة بين الكائنات والاحداث والوقائع) لا تكفي لاعطاء الدليل على وجود نشاط علمي عند البدائي . لا بل انها لا تكفي لتفسير الانتاج العلمي عند المتحضرين . فمقولة « الروح

مفهوم الحضارة التاريخي ، تلك التي ننزع للنظر الى معطياتها وكأنها وقائع او حقائق طبيعية او خاصة بـ « طبيعة » الشعوب او الامم التي نعنى بدراسة احوالها .

تماما كما يجري في علم النفس التحليلي الذي ينطلق من دراسة الانسان «غير السوي» الى دراسة حقيقة الانسان السوي وتوازنته التي تعطي صورة خاطئة عن حقيقة واقعه النفسي . ان هذه الانتروبولوجية التمازجية (différentielle) الخصبة والمخصبة للمعرفة الانسانية هي التي يحيد عنها ليفي سترافوس في انتروبولوجية العقل البشري في نموذجية الاثنين ( المتحضر والبدائي ) التي تشكل فلسفة استقصاءاته العديدة في الحقل الانتروبولوجي ( باستثناء مؤلفه الاساسي « البنى البسيطة للقرابة » حيث لم يكن ليفي سترافوس ، بعد ، نيبويا ) .

١١ - ١ : ولنترجع السؤال الذي يطرحه علينا ضمنا ليفي سترافوس في بداية المقطع السابق . لنجيب بأننا عندما نحكم بان واقعا ما هو واقع عثي فان ذلك يعني تنازل العقل العلمي عن محاولة التفسير ، وغالبا ما يكون منقادا الى هذا الموقف بفعل مواقف ذهنية مسبقة تجعله يركن الى مسلماته ويرى في كل ما يستحيل تفسيره بدءا من هذه المسلمات امرا غير قابل للتفسير ، اذن ، واقعا عثيا .

ولكننا حينما نحاول الافلات من مسلماتنا في تناولنا لوقائع جديدة فاننا لا نرى اي سبب يدعونا الى الاعتقاد المسبق بان ما نتناوله يتساوى في طبيعته واوالياته مع اواليات تفكيرنا العلمي ، وان « منطق » هذا الواقع يشابه منطق المعرفة الذي نحاول كشف اوالياته .

العلمية « هي مقولة ميتافيزيقية يحد ذاتها ولا يمكنها ان تبنيها بالشيء الكثير عن العلم اذا ما نظرنا الى هذا الاخير كعملية انتاج معرفة .  
١٢ - ٢ : ولكن سمات الروح العلمية قد تشير الى امكانيات ذهنية وصفات نفسية لا بد منها لانتاج المعرفة العلمية ولو انها لا تكفي مطلقا لتفسيرها كعملية انتاج . وهنا تدخل بلا شك ملاحظات ليفي ستراوس الانتولوجية ضمن اطار تصحيح سيكولوجية الانسان البدائي . فهي تدل على ان الانسان البدائي مزود بنفس الامكانيات الذهنية . لا بل يمكننا ان نضيف : انه في ذلك الوضع البدائي . الذي تخفي منه المؤسسات المتخصصة . وعملية التراكم ( ما عدا الشفهي منها الذي يمر من جيل الى جيل ) وامكانية الاعتماد على الآخرين في توفير المعرفة وتطبيقاتها المتعددة في شتى مجالات الحياة . فان معرفة العالم تفرض نفسها حياتيا على البدائي وتساهم في شحذ مواهبه واستعداداته المعرفية التي تبقى متيقظة ابدا للتنبؤ بما يمكن ان يحصل ولكن يقيم تنظيمات تساعده على التعرف ( والتعرف هو غير المعرفة ) المنضبط على العالم الخارجي من اجل استخدام امكانيات استغلاله والدفاع عن النفس من اخطاره المتنوعة . ويمكن الاستنتاج من مشاهدات الانتولوجيين ان هذه المواهب الذهنية تبقى اكثر يقظة عند البدائيين منها عند المتحضرين نظرا لاختلاف مجتمعيهما ،

١٣ - ١ : ولكن استقصاءات ليفي ستراوس الانتولوجية . واستخدامه لشهادات زملائه الانتولوجيين قد استغلت من اجل ان تخدم فرضية ذات طابع علمي ظاهري فقط ، فرضية هي في حقيقتها فلسفة العقل البشري الواحد في جميع مظاهره ، سواء اكان عند المتحضرين ام عند البدائيين ، وهي فلسفة افروزها الاعتقاد بان الالسية هي النموذج المعرفي للعلوم الانسانية . فجاءت لتعرض نفسها كفلسفة مسبقة في تناول الوقائع ( وهذا الامر يظهر بشكل واضح في كتب ليفي ستراوس حول دراسة الاساطير المكسيكية ، عند بدائي الامازون ) لكي تقولب مسبقا من اجل البرهان على فلسفة ليفي ستراوس البيوية . ولعل ذلك اخطر ما نرى في تصرف العالم : الزام الاحداث بان تبرهن على فرضية مسبقة . وفي ذلك مثل عن الاهمية المعرفية لفهوم المعرفة العلمية في طريقة استقصاء المعرفة . ونموذج عن كيفية انقلاق حقل المعرفة وذبولها عندما تقتصر على خدمة موقف علموي هئي .

ولا يسع المرء الا ان يقابل بين « علمية » البيوية الزائفة والنظرية الفرويدية ، او بالاحرى المنهجية الفرويدية التي اخصبت الابحاث في جميع ميادين العلوم الانسانية . ولكن ذلك يستدعي حديثا آخر نكتفي هنا بالتلميح اليه .

والى ان قلة من المتحضرين تهتم بالاعمال العلمية والتقنية ، بينما يقع على عاتق كل فرد من البدائيين ان يدرك جميع ما يدور حوله لكي يتكيف مع محيطه . وليس من المستبعد ابدا ان يصل البدائي الى معرفه خصائص الكائنات ، خاصة ما يتعلق منها